

جدلية الاحتجاج الشعري في التقعيد اللغوي

تاريخ استلام المقال: 2015/05/04 تاريخ قبول المقال للنشر: 2016/09/29

د. أحمد إبراهيم بني عطا

كلية العلوم والآداب بالقريات

جامعة الجوف- المملكة العربية السعودية

ملخص:

يعالج هذا البحث قضية الاحتجاج بالشعر في تقعيد النحو العربي، حيث تعد هذه القضية من أوائل الدراسات التي أثارت جدلاً كبيراً بين اللغويين القدماء، فقد تم الكشف عن أسباب قصر التأصيل النحوي على الشعر، والتعرف على حجية بعض القبائل، ضمن معايير فرضتها وثيقة الفارابي وغيرها من الوثائق والرسائل اللغوية، واحترام علماء اللغة لهذه المعايير، والاحتجاج بما جاوز المعايير، واستشهاد علماء اللغة بالمولدين ودلالاته، والوصول في نهاية المطاف إلى نظرة بنيوية جديدة في الاحتجاج.

Abstract

The present research deals with the issue of quoting poetry as an argument in setting the rules of Arabic syntax. Citing poetry is one of the earliest studies that caused heated controversies among ancient linguists. The reasons for restricting syntactic authentication to poetry have been studied in this article. Also, the significance in quoting the Mongrels has been discussed, arriving ultimately to a new structural approach of citing poetry.

مقدمة:

يعد الشعر من أبرز ما احتج به من كلام العرب في تقرير الضوابط اللغوية، وفي صياغة علم النحو والصرف والاستدلال في مستويات الدراسات اللغوية المختلفة، وينهض الشعر مع غيره من كلام العرب في تأصيل علم النحو. وهذه الدراسة التي نحن بصددتها هي واحدة من تلك الدراسات التي تتناول جوانب العربية، ألا وهي دور الشعر في تأصيل النحو وتقعيده . وجاء هذا البحث محاولة لتقديم الأدلة التي تثبت أن التصور الشائع حول حجية الشاهد اللغوي يتنافى مع ما أنتجه اللغويون والنحاة العرب القدماء، وهو تصور قائم على بعض المقولات القديمة التي نظرت للدراسات اللغوية، ومن أشهرها محاولة الفارابي في تأطيره نتائج اللغويين القدماء، وهي من أهم الأطر النظرية اللغوية عند العرب، وذلك بقصر الاحتجاج على

مكان وزمان محددين، بحيث أصبح هذا التصور من المسلمات، ولكن الواقع المعمول به في المصادر اللغوية والنحوية على غير هذه النظرية.

وقد أثارت هذه الدراسة مجموعة من التساؤلات وهي: هل الشواهد الشعرية التي اعتمد عليها كافية لتقعيد اللغة؟ وهل الزمن المحددة بتلك الفترة للاحتجاج كافية لتقعيد اللغوي؟ ألا يمثل الشعر جانباً من جوانب اللغة ونمطاً معيناً من الإبداع؟ أيعيد الاحتجاج بالشعر سبباً من أسباب كثرة الاستثناءات على القاعدة؟ ولماذا اعتمد النحاة واللغويون على الشعر في احتجاجهم دون النثر؟ .

أولاً : الاحتجاج بين المفهوم وإرهاصات التقعيد.

1- مفهوم الاحتجاج

يعرفه ابن منظور بقوله: يقال حاجته أحاجّه حاجاً ومحاجّه حتى حجّته؛ أي غلبته بالحج التي أدليت بها، والحجة هي: البرهان والدليل. وقيل الحجة ما دافع به الخصم، وقال الأزهري: الحُجّة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وحجّه بحجه حجاً غلبه على حجته، واحتج بالشيء، اتخذ حجة. قال الأزهري: إنما سميت حُجّة؛ لأنها تُحجّ أي تقصد لأن القصد لها وإليها. وفي الحديث: اللهم ثبت حجتني في الدنيا والآخرة أي قولي وإيماني في الدنيا وعند جواب الملكين (1).

فالاحتجاج هو استخدام البرهان والحجة اللغوية من الشعر أو غيره في الوصول إلى تعميم أو إزالة إشكال أو توضيح لبس وغُمة، ويراد بالاحتجاج هنا إثبات صحة قاعدة أو استعمال كلمة أو تركيب بديل صح سنده إلى عربي فصيح سليم السليقة، وإنما احتاج القوم إلى الاحتجاج لما خافوا على سلامة اللغة العربية بعد أن اختلط أهلها بالأعاجم، إثر الفتوح وسكنوا بلادهم وعاشوهم، نشأ عن ذلك أخذ وعطاء في اللغة وضياح العصبية من جهة أخرى وإلى التفريط في صيانة الدين من جهة ثانية، إذ كانت سلامة إحكامه موقوفة على حسن فهم المستنبط لنصوص من القرآن الكريم والحديث الشريف وكان في ضعف اللغة تضييع لهذا الفهم .

2- حُجَّةُ الشاهد الفصيح ومواقع الاستشهاد

(1) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، مادة (حجج) 226/2 .

يقصد بالشاهد هنا ما يستخدم من الكلام العربي الفصيح ليبرهن على صحة نسبة تركيب أو دلالة أو لفظة إلى العربية. وتلح الحاجة على معرفة الشواهد؛ لأن « معرفة اللغة والنحو والتصريف فرض كفاية؛ لأن معرفة الأحكام الشرعية... على معرفة أدلتها والأدلة راجعة إلى الكتاب والسنة وهما واران بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم »⁽¹⁾.

ومواضع الاستشهاد هي: القرآن الكريم، والحديث النبوي باختلاف في ذلك، وكلام العرب شعراً أو نثراً من الجاهلية حتى عصر الاحتجاج. « فالقران كل ماورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً »⁽²⁾. ولغة الحديث النبوي ففيها خلاف مع ميل إلى عدم الأخذ بها « لأن الأحاديث لم تتقل كما سمعت من النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما رويت بالمعنى »⁽³⁾، وأما الشعر فقد كان موضع استشهاد جلّ النحويين ولكن بشروط زمنية وجغرافية وقبلية كما سيأتي إلا أن النثر لم يكن منتشراً انتشار الشعر لسهولة حفظ الشعر ولاشتغال العرب به.

والاستشهاد نوعان: « استشهاد لغوي، واستشهاد في المعاني، قال الأندلسي في شرح بديعية رفيقة ابن جابر: علوم الأدب ستة: اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع، والثلاثة الأولى لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب دون الثلاثة الأخيرة، فإنه يستشهد فيها بكلام غيرهم من المولدين؛ لأنها راجعة إلى المعاني ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم، إذ هو أمر راجع إلى العقل، ولذلك قبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحري وأبي تمام وأبي الطيب »⁽⁴⁾. ومن أمثلة الاستشهاد في مجال المعاني ما جاء في شرح مقصورة ابن دريد هشام اللخمي، في قول ابن دريد:

أَنَّ فُصَارَهُ نَفَادٌ وَتَوَى

إِذَا ذَوَى الْغُصْنُ الرُّطِيبُ فَاعْلَمَنَّ

وقول الأسود بن يعفر:

(1) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق، محمد حسن محمد، وإسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت _

لبنان، ط1، 1989م، ص60.

(2) المرجع نفسه، ص36.

(3) المرجع نفسه، ص41.

(4) البغدادي، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1818هـ _

1997م، 1/ 5.

يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادٍ

فَأَرَى النَّعِيمَ وَكُلُّ مَا يُنْهَى بِهِ

وقال أبو العريان المحاربي:

وَالنَّاسُ يَبْلَوْنَ كَمَا يَبْلَى الشَّجَرُ

وَتَرْكِي الْحَسَنَاءِ مِنْ قَبْلِ الظُّهْرِ

وقالت ليلي الأخيلية:

وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرٌ

وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إِلَى بَلَى

وهذه كلها راجعة إلى معنى واحد «(1).

أما الشواهد في اللغة والنحو والصرف فـ « الجزء الذي يستشهد به في إثبات القاعدة لكون ذلك الجزء من التنزيل أو من كلام العرب الموثوق بعربيتهم فهو أخص من المثال »(2). والمقصود بالشواهد هي البرهنة على أن الاستعمال اللغوي في موضع الشاهد هو « من فصيح كلام العرب. ومن أمثله قول الشاعر في حذف حرف الجر:

كَلَامُكُمْ عَلَيَّ إِذْنٌ حَرَامٌ

تَمْرُونَ الدِّيارَ وَلَمْ تَعُوجُوا

أي تمرّون بالديار »(3).

3- الشعر باكورة الاحتجاج

بدأ الاحتجاج مبكراً بالشعر لتفسير القرآن، فقد روي عن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ « سأل عن معنى قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ (4) فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف من التنقص ... قال عمر: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي :

كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنِ (5)

تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامَكًا قَرْدًا

فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم »(1). وعمر _ رضي الله عنه _ توفي سنة 23 هـ. والمتفحص لهذه الرواية يلمس أن عمر قد أتى من

(1) ابن هشام اللخمي، الفوائد المحصورة في شرح المقصورة، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطار، مكتبة الحياة، بيروت _ لبنان، 612/3.

(2) التهاوني، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق، علي دحروج، مكتبة لبنان _ بيروت، 738/3.

(3) ابن عقيل، شرح ابن عقيل، دار الفكر (د. ط) 1411 هـ - 1991 م شاهد رقم 159، 538/1.

(4) النحل: 47.

(5) يصف الشاعر ناقة انضاضها السير بـ: التامك: مرتفع السنام عظيمه، والقرد: ما تمعط من الوبر وتلبذ، السفن: التنقص والضعف. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (تمك) 407/10، مادة (قرد) 348/3، مادة (سفن) 210/13.

كلام العرب بشاهد يفسر ما غمض عليه من الغريب في كتاب الله، ويطلب من أصحابه تفسير القرآن بشعرهم.

والخطوة الثانية تراها عملياً، ونظرياً لدى عبد الله بن عباس 68هـ _ رضي الله عنهما _ إذ يقرر أن « الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الكريم الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه »⁽²⁾. ففي مسائل الإتيان ما يشير إلى منهج ابن عباس في إجاباته عن أسئلة نافع بن الأزرق التي شفعت بتفسير كل كلمة بيت من الشعر يدعم تفسيره. وما ينسب إلى عبد الله بن أبي إسحاق (117 هـ) احتجاجه لإجازة إياك الأسد بقول الشاعر:

فإِيَّاكَ إِيَّاكَ المِرَاءَ فَإِنَّهُ إِلَى الشَّرِّ دَعَاءٌ، وَلِلشَّرِّ جَالِبٌ⁽³⁾

وفي احتجاج أبي عمرو بالشعر يقول الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن ألف مسألة فأجابني فيها بألف حجة. وقال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تبارك وتعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِتَالِيَةٍ﴾⁽⁴⁾ مثقلة، فقال: شددنا، وأنشد قول المتلمس:

أُجِدُّ إِذَا ضَمَرْتُ تَعَزَّزَ لَحْمُهَا وَإِذَا تُشَدُّ بِنِسْعِهَا لَا تَنْبِسُ⁽⁵⁾

ثم إن الناظر لفهارس الكتاب، لسيبويه يجد أنه قد أكثر من الاستشهاد بالشعر. قال الجرمي: « نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً فأما الألف فقد عرفت أسماء قائلها فأثبتها وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائلها »⁽⁶⁾.

ثانياً: الاحتجاج بين الفرضية والحتمية

(1) التهاوني، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، 738/3.

(2) السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/1979م، 67/4.

(3) سيبويه، الكتاب، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 275/1.

(4) يس: 36.

(5) السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق، محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، 1966م، ص22. الأجد: من الإجاد، والإجاد كالطاق القصير. وناقاة أجد وهي التي فقار ظهرها متصل، والقوية الموثوقة الخلق. النسع:

سير مضفور يجعل زماما للبعير وتنسج عريضة تجعل على صدر البعير. تنبس: من نبس: عدم التحرك. ينظر: ابن

منظور، لسان العرب، مادة (أجد) 70/3، مادة (نسع) 352/8، مادة (نبس) 225/6.

(6) السيرافي، المرجع نفسه، ص22.

1- معايير الاحتجاج عند العرب

هرع النحاة إلى بوادي العرب وإلى رواة الشعر الجاهلي، وبدأ النحاة يرصدون كلام العرب ليضعوا قواعده فرفضوا السماع من أحد إلا من كان قد بقي محبوساً في البوادي في جزء محدود منها. ولقد وصف منهج الأقدمين في جمع اللغة بأنه «علم دقيق يقول على الملاحظة والاستقراء والإفراط بالحيلة أحياناً، حتى نستطيع أن نكون مطمئنين إلى أكثر ما استنتجوه من خصائص لغتنا التي تجنبوا أخذها ممن تشوب عربيتهم أية شائبة»⁽¹⁾. فقد اقتصر أخذهم اللغة على عرب البادية وعلى فصحاءهم بشكل خاص.... الذين ترضى عربيتهم، أو العرب الموثوق بهم أو بعربيتهم، وهم أهل الحجاز كما نعتهم سيبويه.

ولقد كان للاستشهاد بكلام العرب معايير وضعها النحاة، اتضحت في وثيقة أبي نصر الفارابي والتي أشار إليها غير واحد من النحاة، كأبي حيان وجلال الدين السيوطي، وينص عليها في الاقتراح بقوله: «كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من كلام العرب.... والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم... ولم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاة ولا من غسان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية ولا عن تغلب... ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون اللغة واللسان العربي عن هؤلاء. و أثبتتها في كتاب وصيرها علماً وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة من بين أمصار العرب»⁽²⁾.

والقارئ لهذه الوثيقة على ما يلاحظه فيها من ارتباك يمكنه أن يستنتج أن ضوابط الاحتجاج بلغة العرب تسير وفق أربعة معايير وهي: المعيار القبلي، المعيار القبلي المكاني، المعيار الزمني، المعيار الزمني المكاني.

أ- المعيار القبلي :

(1) الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط1، 1379هـ/1960م، ص110.

(2) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق، محمد حسن محمد، واسماعيل حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان، ط1، 1989م ص 44.

أجمع علماء العربية على أن أفصح العرب قريش، قال ابن فارس: « أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم: أن قريشاً أفصح العرب لسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب، واختار منهم نبي الرحمة محمداً _ صلى الله عليه وسلم _ فجعل قريشاً قطّان حرمه، وجيران بيته الحرام وولاته. فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم » (1).

وكانت قريش عندما تزورها القبائل تنتقي من لغاتها الأسهل والأنقى وإلى ذلك يشير ابن جني بقوله: « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عننة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن، وتضع قيس وعجرفة ضبة، وتلتة بهراء » (2) ولعل الذي جعل لغة قريش أقوى اللهجات هي العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تتمتع بها قريش في الجاهلية وفي الإسلام ذلك أن لهجة قريش والتي أصبحت « اللغة العربية الفصحى المقصورة عند الإطلاق، لم تكن في جميع الحالات أقوى قياساً من لهجة تميم، بل أكثر ما تفوقها في بعض ذلك تميم » (3).

ب- المعيار القبلي المكاني :

لقد أشار نص الفارابي آنفاً إلى عدم حجية لغة كثير من القبائل لمجاورتها غير العرب « فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم والذين حولهم... » ولا يغفل قضية المجاورة بالدين « وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية » وهو إذ يشير إلى الحضرية، والمجاورة، والدين كحجة مانعة للاحتجاج، فإنه يغفل أن العرب كانوا يجاورون الأمم منذ الجاهلية، فحواضر الحيرة كانت تعج بشعرائهم « فلماذا يحتج بشعر النابغة الذي كان دائم التنقل بين بلاطي الحيرة وغسان المجاورتين لفارس والروم، وأين هم من الأعشى الذي كان جواباً بالآفاق إلى الحد الذي تأثرت لغته الشعرية بالفارسية » (4) يقول في إحدى قصائده :

(1) ابن فارس، الصاحبي في فقه العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق، السيد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت _

لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ص33.

(2) ابن جني، الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب العلمية المصرية، (د. ط) (د. ت) ، 131/2.

(3) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص45 .

(4) مهدي محقق، أثر اللغة الفارسية في اللغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع96، ص305.

لها جُلَّسانٌ عندها وبَنَفَسَجٍ وسيسنبرَ والمرزجوشُ مُنَمَّما
وَأَسْ وَخَيْرِيٍّ، وَمَرُّوْ وَسَوْسَنٍ إذا كان هنزمنٌ ورُحْتُ مُحْشَمًا
وشاهسفرَمَ والياسمينُ ونرجسُ يُصَبِّحُنَا فِي كُلِّ دَجْنٍ تَعِيَمًا⁽¹⁾.

ولا يحتج بشعر ثقيف؛ لأن لها علاقات تجارية مع غيرها، أو لا يحتج بشعر بني حنيفة واليمامة لمجاورتها اليونان، أم أن أولئك احتج بشعرهم لأنه جد بهم القدم على عادة علماء اللغة في تقديم السابقين من الشعراء على معاصريهم وبذا نص المعيار الثالث.

ج- المعيار الزمني :

قسم الشعراء إلى أربع طبقات من ناحية الاحتجاج بشعرهم فهم: جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون، فقصر الاحتجاج على شعراء الطبقات الأولى والثانية، بحيث ينقضي عصر الاستشهاد بوفاة آخر شعراء الطبقة الثالثة، وفي هذا يقول صاحب الخزانة: « فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها »⁽²⁾.

فالتبقة الجاهلية والمخضرمة لا ينشق لها غبار؛ لأنها سبقت من هموا بتقعيد النحو، فهذا عمرو بن العلاء (154هـ) يصف شعر الإسلاميين بالمولد، والمحدث الذي لا يحتج به؛ لمعاصرته له وفي ذلك يقول ابن رشيق: « كل قديم من الشعراء محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد أحسن هذا المولد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا برواية شعره »⁽³⁾ يعني شعر جرير والفرزدق، يجعله مولدا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين.

(1) الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق: إبراهيم زيدان، مكتبة الهلال، 1902، 677/2. السوسن: نبت، أعجمي معرب، الجلَّسان: الورد الأبيض، وضرب من الرياح، المرزجوش: هو المردقوش وهو بالفارسية أذن الفأرة، المنمم: الورق المصفر، الهنزم: عيد من أعياد النصارى وسائر العجم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوسن) 13/229.

(2) البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1818هـ _ 1997م، 6/1.

(3) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، 1401هـ/1981م، 56/1.

أما الطبقة الرابعة، فإنهم المولدون الذين لا يحتج بشعرهم على خلاف بين علماء اللغة فقد خرجوا خارج نطاق الاستشهاد، فصاحب الأغاني يقول: « ختم الشعراء بابن هرمة وهذا السيوطي يقول: ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة، وهو آخر الحجج »⁽¹⁾.

وبهذا تتحدد الفترة الزمنية للاحتجاج بوفاة ابن هرمة 150 هـ وبشار بن برد المتوفى (167 هـ) من المحدثين، وبالرغم من الاعتراف بأن الشعراء المحدثين مطبوعون فإنه لم يحتج بشعرهم « والمطبوعون على الشعر من المولدين: بشار العقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية وأبن أبي عيينة، وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى ابن نوفل، وخلف ابن خليفة وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء وبشار أطبعهم »⁽²⁾.

ويشير البغدادي إلى الاستشهاد بكلام من يوثق به من هذه الطبقة المحدثه فقد استشهد الزمخشري في تفسير الكشف لسورة البقرة ببيت من شعر أبي تمام، وقال: « وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه الحماسة، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته واتقانه »⁽³⁾.

د-المعيار الزماني المكاني :

هذا المعيار يبحث في التمييز بين أهل البادية وأهل الحواضر في الفصاحة وامتداد عصرها، وهناك أساس عام لدى القدماء ينبئ بهبوط الفصاحة في الحاضرة ووجودها في البادية، حيث كانوا يرسلون أبناءهم إلى القبائل لتعلم الفصاحة واكتسابها، وكان علماء اللغة يفرقون بين القروية واللعن، فعمر بن العلاء يقول: « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج وكان لا يبرئهما من اللعن »⁽⁴⁾، ويقول الجرجاني: « وأنت تعلم أن العرب مشتركة باللغة واللسان وأنها سواء في المنطق والعبارة، وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة... فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفتنة »⁽⁵⁾.

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الجيل_ بيروت، (د. ط) (د. ت) 50/1.

(2) الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ص16.

(3) البغدادي، المرجع نفسه، 7/1.

(4) الجاحظ، المرجع نفسه، 163/1.

(5) الجرجاني، المرجع نفسه، ص10 .

ولقد فرق أبو عمرو والأصمعي وابن سلام بين البدوية والحضرية، وطعنوا في فصاحة بعض الشعراء الذين خضعوا لشروط الاحتجاج، ومن ذلك رفض الأصمعي الاحتجاج بشعر ذي الرمة في قوله للمرأة زوجة لا زوج؛ لأنه « أكل البقل والمملوح في حوانيت البقالين حتى بشم »⁽¹⁾، ومنه قول الأصمعي في الكميت: « جرمقاني من جراميق الشام لا يحتج بشعره »⁽²⁾.

ويشير ابن جني إلى ذلك في باب ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر « علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخلط، ولو علم أن أهل المدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنها، وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا »⁽³⁾.

ولعل الذي يخبر عنه قول ابن جني أن الاحتجاج شرطه الفصاحة « وأنت تعلم أن العرب مشتركة باللغة واللسان، وأنها سواء في المنطق والعبارة وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة ... فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحده القريحة والفتنة »⁽⁴⁾. وهكذا كان المقياس الطبع والفصاحة فلما اقتصر على منتصف القرن الثاني عند الأصمعي وعمرو بن العلاء، مده العلماء إلى منتصف القرن الثالث.

واستمر الاحتجاج بشعر أهل البادية إلى نهاية المئة الرابعة، « فقد قالوا إن كثيرا من قبائلهم كانت فصيحة إلى حدود الأربعمئة، ثم فسدت لغتهم بدخول القرامطة والزنج والزلط »⁽⁵⁾ وعليه فقد قالوا بأن « كلام الشافعي في اللغة حجة »⁽⁶⁾ وقد توفي سنة 204هـ، وفي هذا يذكر الدكتور إبراهيم مصطفى أن النحاة قد « سمعوا من الموالي الذين صحت عند النحاة سليقتهم

(1) المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، 1415هـ/1995م، ط1، ص302.

(2) الجرجاني، المرجع نفسه، ص 10.

(3) ابن جني، المرجع نفسه، 7/2.

(4) الجرجاني، المرجع نفسه، ص 16.

(5) محمد جبل، المرجع نفسه، ص 83.

(6) السيوطي، المرجع نفسه، ص 46.

واستقامت ألسنتهم مثل: خلف الأحمر، والحسن البصري، والمنتجع النبهاني وكان سندیًا، كما استشهدوا بشعر بشار، وأبي نواس، وأبان بن عبد الحميد اللاحي»⁽¹⁾.

يقول المرحوم الشيخ محمود الشنقيطي: « من تعلم العربية بالصناعة يحتج بعربيته كالمأمون الذي لم يقع اللحن في كلامه ... »⁽²⁾ . ويقال بأن لغة الحجاز قد فسدت لكثرة ما كان يفد إليها من الأعاجم في الحج، وفسدت لغة تميم؛ لرحيلها في الأمصار؛ ولأنها دخلت في دعوة القرامطة.

ويتضح مما أوردناه أن هذا المعيار يشترط زمان ما قبل 150هـ ، ومكان الجزيرة العربية في جزء محدود منها فقد رأوا « أنه قد سلم من الاختلاط وهو الجزء الغربي من نجد، وما يتصل به من السفوح الشرقية لجبال الحجاز؛ وهو الذي يسمونه عالية السافلة وسافلة العالية ويقول أبو عمرو بن العلاء: لا أقول: قالت العرب، إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية »⁽³⁾. وبذلك استبعدت قريش وثقيف « ومن قبل هذا كان عثمان يقول: لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف »⁽⁴⁾.

2- حتمية معايير الاحتجاج عند علماء اللغة

هذا وقد أحصيت أكثر من عشرين عالما وضعوا هذا النص كأنه قرآن وأشير إلى نص الفارابي والذي حوى وغيره المعايير التي تحدثنا عنها، فقد التزم محمد بن سلام الجمحي 231هـ في كتابه على شعراء الجاهليين والإسلاميين ولم يتعرض للمحدثين، وبذا يخرجهم خارج دائرة الاحتجاج، حيث يقول: « ذكرنا العرب وأشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها، فاقصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم، ولا يستغنى عن علمه ناظر في أمر العرب، فبدأنا بالشعر »⁽⁵⁾ ولم يورد للمحدثين شيئاً وكأنهم ليسوا من العرب .

(1) السيوطي، المرجع نفسه، 46 .

(2) محمود الشنقيطي، في أصول النحو، مجلة مجمع القاهرة، ع8، 1955، ص 141.

(3) محمد جبل، المرجع نفسه، ص 83 .

(4) محمد جبل، المرجع نفسه، ص 141.

(5) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، شرحه، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني _ جدة، المقدمة ، ص3 .

وكذا الجاحظ 255هـ، ينعت المحدثين بالمولدين، ويشير إلى بشار، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عينية « وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل وسلما الخاسر وخلف بن خليفة وأبان بن عبد الحميد اللاحقي »⁽¹⁾، ويشير أيضاً إلى أنه « لم يكن من المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة »⁽²⁾.

وفي الشعر والشعراء حاول ابن قتيبة التفضيل على أساس الجودة الفنية فترجم لابن هرمة الذي يقول فيه الأصمعي: « ساقا الشعراء: ابن ميادة، وابن هرمة، ورؤبة، وحكم الخصري، حي من مأرب، وقد رأيتهم أجمعين »⁽³⁾، وترجم أيضاً للعماني، وبشار بن برد، وسديف بن ميمون ومروان بن أبي حفصة، وأبو عطاء السندي وابن ميادة وأبوحية النميري وأبو دلامة وغيرهم.⁽⁴⁾ وفي كتابه أدب الكاتب لم يحتج ابن قتيبة بشعر المحدثين إلا ببيت لأبي العطاء السندي 180هـ، وشطر بيت للعماني 228هـ، وبيت السندي هو:

عَشِيَّةَ قَامَ النَّائِحَاتُ وَشَقَّتْ جُبُوبَ بَأْيَدِي مَأْتَمٍ وَخُدُودِ⁽⁵⁾

وفي الوقت نفسه حوى أدب الكاتب لابن قتيبة نحو 421 شاهدا شعريا⁽⁶⁾ وترى الجرجاني في الوساطة يحاول إنصاف المحدثين، فيقول: « ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس... »⁽⁷⁾. وابن رشيق يعقد باباً في عمدته للقدماء والمحدثين، وفي حديثه عن تفضيل الأصمعي وابن الأعرابي، وتفضيلهم للقديم يقول: « إن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب، ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولد ثم صارت حاجة »⁽⁸⁾، وكذلك ابن جني يذكر عنت ذي الرمة في مطلع قصيدته التي أولها ألا

(1) الجاحظ، المرجع نفسه، 50/1.

(2) المرجع نفسه، 51/1.

(3) البغدادي، المرجع نفسه، 148/1. ابن قتيبة؛ الشعر والشعراء، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، ط3، 1977م، ص473.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص473.

(5) ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق، محمد الدالي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1982م، ص26.

(6) ينظر: فهرس الشواهد الشعرية، ص422-438.

(7) الجرجاني، المرجع نفسه، ص15.

(8) القيرواني، المرجع نفسه، 91/1.

حييت عنا يا مدينا⁽¹⁾، ويشير إلى المحدثين بقوله: « إن من المحدثين أيضا من يسرع العمل ولا يعتافه ببطء ولا يستوقف فكره، ولا يتتبع خاطره. فمن ذلك ما حدثني به من شاهد المتنبّي، ومن حضر عنده أبي علي الأوراجي »⁽²⁾.

ولقد تجنب سيبويه والنحاة الاحتجاج بشعر المحدثين ومنهم بشار بن برد ومن شعراء الحضر، كما تجنبوا الاحتجاج بكلام البدو منذ أواسط القرن الرابع الهجري؛ وبذا جمدت الأطر النحوية، وحُرم النحو من التراكيب اللغوية الجديدة والرفيعة التي جاء بها الشعراء المحدثون، وتحول الدرس النحو واللغوي لدراسة الشواذ والخلاف، مما أضفى عليه ظلالا كثيفة من الاضطراب والبحث في الشواذ والنوادر.

وإذا أمنت أنّ اللغة هي نتاج للإنسان، وهي ملك للمجتمع كله، فكيف بي أن أعتبر إعراض النحاة، وعلماء اللغة عن نتاج مئات الشعراء والناثرين ممن طبعوا على العربية الأصيلة عملا مبررا، اللهم إذا اعتبر نتاج المولدين غير عربي، وإذا كانت المسألة مسألة خطأ وصواب فهي تخضع للنسبية « فالصواب صواب بالنسبة إلى ظروف معينة تمر بها اللغة اجتماعيا وتاريخيا وبالنسبة إلى النموذج الذي يقاس إليه، ومستوى هذا النموذج سواء أكان من اللغة الأدبية أم من لغة التأليف والكتب »⁽³⁾.

فهل يمكن القول: بأن الظروف هي المبرر لهذا الإهمال للتيار اللغوي المتدفق، والذي لبى سباحات العقل والخواطر الإنسانية في حينه، ولم يخرج عن اللغة خروج ما قالوا عنه بأنه شاذ أو غير ذلك؟ وهل إيقاف الاحتجاج بلغة المحدثين بتلك الدقة العلمية التي تصل إلى هذا الحد؟ وإذا كانت الدقة المتناهية إلى هذا الحد فأين نضع الشواهد الشعرية المجهولة القائل أو من تعددت نسبتها؟ وما الموقف من رواية الرواة الذين كانت رواية الغريب وسيلة معاشهم؟ .

وأين نقف من القول بأن اللغة « تتطور بتطور المجتمع الذي يستقبل جهازه اللغوي كل يوم جديد من الألفاظ والتراكيب الواردة، فهي تسهم بمرور الزمن في تطوير اللسان بإثرائه بصيغ ومقررات ونظم جديدة »⁽⁴⁾ أمر لا يفهم منه الدعوة إلى الإطاحة باللغة والتبشير بلغة محدثة

(1) ابن جني، المرجع نفسه، 327/1 .

(4) المرجع نفسه، 328/1.

(3) شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت _ لبنان، ط6، 1413هـ/1993م، ص24.

(4) المرجع نفسه، ص239.

تتناسب ومستحدثات العصر، بل الخوف من نذر تلك المماحكات بين اللغوين التي لم تأت بجديد إلا تفريغاً للغة من محتواها، والخوف من أن تسري إليهم عدوى الخلاف الفقهي، الذي لا يضيف إلى العربية شيء تستحق ترك جزء كبير من أشعار المتنبي أو البحتري أو غيرهم بسبب زمن ابن هرمة أو موقع القبيلة أو ديانة الشاعر مثلاً.

3- معايير الاحتجاج رؤية جديد

إن الناظر في لغة وتراكيب الوثيقة التي وضعها الفارابي، أو غيرها من الوثائق في حجية اللغة ترى أنها استندت إلى التعميم الذي لا يستند إلى الاستقراء لواقع المعايير سواء أكانت مكانية أو زمانية أو قبلية. فهل ابن هرمة مثلاً يختلف في قدرته اللغوية عن بشار الذي لم يحتج به لأنه تجاوز عام 150هـ، ولأنه مولد أو محدث؟. أضف إلى هذا الأمر طبيعة بعض الألفاظ التي استخدمت في نصوص تلك الوثائق كألفاظ مثل: الفصاحة، والعجمة، والصافي النقي، ما هي في واقع أمرها إلا ألفاظ مطلقة الدلالة، فهل خرج بشار وغيره عن حد الفصاحة وأصبح أعجمياً، وأصبح كلامه غير نقي؟ وإذا كانت العجمة تعني استخدام لفظ أعجمي فكيف يقبل الاحتجاج بشعر الأعشى الذي يستخدم ألفاظاً أعجمية فارسية ولا يحتج بشعر البحتري والمتنبي مثلاً؟.

وأما قوله: « ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين... وبالجمله لم يؤخذ عن حضري قط » فهل هناك أدوات معينة ودقيقة تحكم ذلك الجزء الذي قد يصل إلى النصف، أو يزيد من أشعار هذه القبائل، وإذا علمنا أن الطائيين قد أحتج سيبويه بشعرهم الجاهلي والإسلامي، فهل صار الزمن عاملاً يفسد اللغة فلماذا يفسد لغة تميم مثلاً. ثم إن اللغويين والنحاة قد احتجوا بلغة هذيل وأشعار كنانة في كتبهم وتفسيرهم، فأين يقف بعضهم؟.

وقوله: « وبالجمله » ربما يكون مرادفاً لقولنا: وبصورة عامة إن صح التعبير، وهذا أيضاً ضرباً من التعميم لا يتناسب وعلمية نص حدّي في مسألة من أخطر مسائل اللغة منذ نزول القرآن فيما أحسب. أما قوله: « كانوا مجاورين... وأكثرهم نصارى » فهل تختلف المجاورة من زمن لزمن، وهل النصرانية تغير طبيعة لغة من زمن لزمن في نفس المكان وعند نفس القوم. وإذا حصل هذا فهل قراءة الإنسان للغة غيره تفقده حسه اللغوي ونقاءه؟ ثم قوله « ولا من حاضرة الحجاز... وهم أهل الكوفة والبصرة... » إذا كانت الحاضرة تفسد اللغة والاحتجاج،

أفلا يخشى من أهل البصرة والكوفة أن يدخلوا فسادهم اللغوي إلى اللغة التي يقعدوا لها أم أن فسادهم المنقول عنهم تمنع اللغة من اللين والفساد.

وإضافة إلى لغة الوثيقة التي اتسمت بالتعميم والارتباك الذي يصل إلى حدّ التناقض، فإن الوثيقة وآراء العلماء بتعميمهم الاحتجاج بنطاق معين للزمن والمكان، قد قتلوا الإبداع اللغوي وألغوا الفروق بين الأفراد، والتي تصل لدى المتأخرين إلى درجة من اللغة أفضل في النقاء والبعد عن العجمة من السابقين، « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لغائب القدح فيه إما في نظمه أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه أو إعرابه ؟ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثير من إشعارهم معيبة مستردة ومردودة منفية، لكن هذا النطق الجميل نقي الظنة عنهم وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام »⁽¹⁾

والنص يشير إلى وجود عيوب معنوية لأن لغتهم سليقة، ولكن تقدمهم يغفر لهم الخطأ، أفلا يغفر للمتأخر خطأ غيره ويكافأ على إجادته وتفوقه على من سبقه « ولذلك تجد شعر عدي وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤية»⁽²⁾

كما أن الحكم يمنع أخذ اللغة عن مناطق وقبائل كذا، نفترض مسبقاً عدم الفصاحة فيها، وهذا حكم غير علمي ولا منطقي، وهو يلغي لغة جزء كبير من أهلها، ويقصر الاحتجاج على فئة لا تمثل جوانب اللغة المختلفة، والعلم لا يفترض فرضيات ويتركها بدون فحص، فهلاً استقرأوا لغة هذه القبائل وفحصوها فلعلها تصلح للاحتجاج .

ولعل التشدد الذي قاده عمرو بن العلاء والأصمعي في التبكير في زمن الاحتجاج وقصره على الجاهليين يمثل رأيهم على اعتبار سبقهم، وعلمهم في هذا المجال. فأبو عمرو بن العلاء يقول في كلمته المشهورة: « لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته»⁽³⁾ ، وقد كان يقصد بالمحدث شعر الفرزدق . ويقول الأصمعي: « إنه جلس إلى أبي

(1) الجرجاني، المرجع نفسه، ص 4 .

(2) المرجع نفسه، ص 18 .

(3) الجاحظ، المرجع نفسه، 321/1، البغدادي، المرجع نفسه، 297/17 .

عمرو بن العلاء عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي ، وكانت كتبه التي كتب عن العرب قد ملأت بيتا إلى قريب من السقف ⁽¹⁾ وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية. وقد وصف الأصمعي ذي الرمة بأنه جرمقاني من جرامة الشام، وهذا طعن في عروبوته وفصاحته. وحادثة تخطئة عبد الله بن أبي إسحاق للفرزدق أشهر من أن تعرف في هذا المجال. ووصلت حدية التشدد، إلى وجوب التقيد بالعبارات المستخدمة في نطاق مقامات معينة، كما يبدو من موقف أبي عمرو « قال رجل لأبي عمرو بن العلاء: أكرمك الله قال: مُحدثٌ » ⁽²⁾. وعلى الرغم من تجاوز اللغويين تشدد أبي عمرو إلا أنه ظل يهيمن على أحكامهم قصر الاحتجاج على ما قبل 150 هـ.

فإذا علمنا أن معظم النحاة قد التزموا بعصر الاحتجاج فنلمس « أن إيقاف الاحتجاج على نتاج الحقبة التي حددها يعني؛ الحكم بإيقاف نمو اللغة في متنها ودلالاتها، عند الحد الذي وصلت إليه في تلك الحقبة وذلك شيء يضاد طبيعة اللغة التي تجاري تجدد الحياة مجارة حتمية» ⁽³⁾. فحتمية مجارة اللغة لتجدد الحياة، قد حدى ببعضهم إلى الاستشهاد بأشعار أبي تمام أو أشعار ابن المعتز، أو أبو العتاهية، كما سترى عند الدراسة التفصيلية لبعض شواهد كتب النحو.

ويتلمس الدكتور صبحي الصالح لأبي نصر الفارابي عذرا بقوله: « وليس لهذه الحيلة في أخذ اللغة، على النحو الذي وصفه أبو نصر الفارابي إلا تفسير واحد هو الحيلولة دون تسرب الدخيل إلى العربية ما لم يطبع بطابع الفصحى تبعا لأساليب تعريبها؛ لأن مثل هذا التسرب غير الإرادي وغير المقصود يفسد على الباحثين منهم أصالة اللغة وشخصيتها» ⁽⁴⁾

وهل ضمنت وثيقة أبي نصر الحيلولة دون تسرب الدخيل إلى العربية؟. وهل أشعار المحدثين من الدخيل الذي لم يطبع بطابع الفصحى؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نعمم المقياس على العصر الجاهلي ونلغي الاحتجاج بشعر الأعشى أو النابغة والنعمان بن المنذر والزبلاء ولقيط بن يعمر الأيادي وعدي بن زيد، الذين اختلطوا بالفرس وتأثرت لغتهم بلغة الفرس، وإذا سمح

(1) الجاحظ، المرجع نفسه، 1/ 321، البغدادي، المرجع نفسه، 2/1 .

(2) الجاحظ، المرجع نفسه، 2/ 318 .

(3) جبل، المرجع نفسه، ص104.

(4) يتظر، الصالح، ص113_114 .

للجاهلي أن يتأثر بلغة غيره فلماذا لايسمح ذلك للمتعلم من المحدثين؟ . وربما وجدت هذه التساؤلات صدى في آذان بعض اللغويين والنحاة وكان أولهم ابن قتيبة، الذي لم يقصر كتابه على القدماء بل ترجم للمحدثين. والملاحظ أن الذين ترجم لهم ابن قتيبة قد استشهد بشعرهم بعض علماء اللغة على قلة كما سنرى من خلال الاطلاع على مايتيسر من كتب اللغة والنحو.

4- الاحتجاج بين المعيار والخروج :

حددت وثيقة الفارابي قبائل الاحتجاج واستثنت قبائل أخرى مثل : قضاة وغسان وإياد وتغلب وحنيفة وثقيف والمدينة ومكة والطائف والبحرين والحيرة والكوفة واليمن لقوله: « وبالجمله فإنه لا يؤخذ عن حضري... » والعبارة تشمل كل الحضر.

فالنظر في فهرس الكتاب لسيبويه واحتجابه بالشعر يدرك أن سيبويه قد أحتج بأشعار لثقيف: فقد أحتج ببيت من الشعر لأبي محجن الثقفي،⁽¹⁾ وسبع أبيات لأمية بن أبي الصلت الثقفي،⁽²⁾ كما أحتج ببيت من الشعر من حيرة عبيد بن الأبرص،⁽³⁾ وبيت لجذيمة الأبرش،⁽⁴⁾ وبيت للنعمان بن المنذر،⁽⁵⁾ وسبع أبيات لعدي بن زيد وبيت لأبي دؤاد الأيادي،⁽⁶⁾ كما استشهد بستة عشر بيتا لحسان بن ثابت وهو يسكن المدينة، واحتج بشعر غيرهم من تلك القبائل التي نص الفارابي على عدم الاحتجاج بشعرهم.

وإذا انعطفت إلى معجم لسان العرب وتتبع شواهد فتراه استشهد بأشعار من جميع القبائل التي نص الفارابي على عدم حجتها. فأخذ من قضاة: وعلة الجرمي وله ستة أبيات، وعبد الله بن عجلان النهدي وله بيتان، ومن غسان: بعدي بن الرعاء الغساني، وعبد المسيح بن نقيلة الغساني، والخزاع بن سنان الغساني، ومن إياد: الحارث بن دوس الإيادي، ولقيط بن يعمر الأيادي، وأبي دؤاد الإيادي، ومن تغلب: بالأخنس بن شهاب، و أفنون التغلبي، ولالأخطل

(1) سيبويه، المرجع نفسه 427/1، 286/2.

(2) المرجع نفسه، 326/1 .

(3) المرجع نفسه، 396/3.

(4) المرجع نفسه، 518/3.

(5) المرجع نفسه، 260/1.

(6) المرجع نفسه، 66/1.

التغليبي عشر أبيات في ستة مواضع، ومن حنيفة: لعبدالله بن ثعلبة الحنفي، ومن ثقيف: بابن الدنبة، و أبي الصلت الثقفي، وعبد الله بن نمير، ولأمية بن أبي الصلت بأربعة وتسعين بيتاً⁽¹⁾. أما الحضر فقد أخذ بشعر حسان بن ثابت وابنه، وكعب بن مالك، وعبد الله ابن رواحة، وقيس بن الخطيم، وأبي قيس بن الأسلت، ومن شعراء المدينة، ومن مكة أخذ بشعر عبد الله بن الزبير، وأبي طالب، والزبير بن عبد المطلب، والعباس، وضرار بن الخطاب القهري، وهريرة ابن أبي وهب، ومن شعراء الطائف: بأبي الصلت ابن أبي ربيعة الثقفي، وأمية بن أبي الصلت، وأبي محجن، وغيلان بن سلمة، ومن شعراء البحرين: بالمتقّب العبدى، والمفضل النكري. ومن الحيرة: بعبد المسيح بن عسلة، وعبيد بن الأبرص، وأوس بن حجر، والمتلمس، ولقيط الأيادي، وأبي دؤاد، وعدي بن زيد وله وحده مئتا بيت في لسان العرب، ومن شعراء الكوفة: الكميت، والطراح، وللكميت وحده خمسمائة بيت تقريباً، ولذي الرمة نحو ألف بيت. ومن شعراء اليمن أصلاً أو موطناً: الأفوه الأودي، والأسعر الجعفي، وعمر بن قعاس المرادي، وعمر بن معدى كرب، وامرؤ القيس⁽²⁾.

وهؤلاء الشعراء جميعهم في زمن الاحتجاج وربما شفع لهم زمنهم أن أصبحوا حجة على اللغة، ولم يحتج بشعر من لحقوا بهم من بني قومهم أو أماكن سكانهم.

ويعد بشار بن برد أول المولدين 167هـ وآخر المحتج بشعرهم هو ابن هرمة 150هـ « وأول الشعراء المحدثين بشار بن برد، وقد أحتج سيبويه ببعض شعره تقرباً إليه؛ لأنه كان هجاء لتركه الاحتجاج بشعره، ذكره المرزباني وغيره. ونقل عن ثعلب عن الأصمعي أنه قال: ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة وهو آخر الحجج⁽³⁾، وعلى هذا فمن جاء بعد ابن هرمة يعد من المحدثين، وهم: بشار بن برد 167 هـ ومطبع بن إياس 170 هـ، وخلف بن حيان الأحمر 180 هـ، وعقيل بن بلال بن جرير، ومروان بن أبي حفصة، والمؤمل بن أميل المحاربي 190 هـ، ومروان النحوي، ومروان بن سعيد بن عياد المهلبى 190 هـ، وأسجع السلمي 195 هـ، وأبو الشيص 196 هـ، وأبو نواس 195-200 هـ، وربيعة الرقي 198 هـ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي

(1) ينظر: الأيوبي، معجم شعراء لسان العرب، دار العلم - بيروت، 1980 وسيبويه، المرجع نفسه، وجبل: المرجع نفسه، ص 105_108.

(2) ينظر: الأيوبي، المرجع نفسه، ص 105_108.

(3) البغدادي، المرجع نفسه، ص 8.

200هـ، وأبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي 202هـ، والإمام الشافعي 204هـ، وكلثوم بن عمرو العتابي 209هـ، ومسلم بن الوليد 208هـ، وأبو محمد بن عبد الله بن أيوب التيمي 209هـ، وبشر بن المعتمر 210هـ، ومحمد بن يسير الرياشي 210هـ، وأبو العتاهية إسماعيل بن القاسم 211هـ، وأبو العباس محمد بن ذؤيب العقيمي 228هـ، وأبو تمام حبيب بن أوس 231هـ، وعمار بن عقيل بن بلال 239هـ، وأبو العميتل 240هـ، وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري 284هـ، وعبد الله بن المعتز 296هـ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله المفجع 329هـ، وأبو الطيب المتنبي 354هـ، وأبو النواس الحمداني 357هـ، وفي القرن الخامس: أبو نصر عبد العزيز بن عمرو السعدي 405هـ، والشريف الرضي 406هـ، وعبد المحسن بن محمد ابن عليون 419هـ، ومهيار الديلمي 428هـ، وأبو علاء المعري 449هـ، وفي القرن السادس: أبو محمد القاسم بن علي الحريري 516هـ⁽¹⁾.

وفي الكتاب احتج سيبويه ببيت لخلف الأحمر المتوفى 180هـ، وبيت لمروان النحوي 190هـ، وبيت لأبان بن عبد الحميد اللاحقي 200هـ يقول فيه :

حَذَرُ أُمُورًا لَا تُضِيرُ وَآمَنُ مَا لَيْسَ مِنْجِيهِ مِنَ الْأَقْدَارِ⁽²⁾

وذكر الجاحظ في بيانه أن الشعراء المحدثين « بشار، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عنييه، ويحيى بن نوفل، وخلف بن خليفة، وأبان بن عبد الحميد » ونعتهم بالمطبوعين وهذا اعتراف بأنهم فصحاء أو ماشابه ذلك، وأنشد أبياتا منالشعر تصلح للرواية والمذاكرة وذكر منها قول حبيب بن أوس:

وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلَقٌ لِدِيَابِجَتَيْهِ فَاعْتَرِبَ تَجَدَّدٌ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَيْدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ إِذْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ⁽³⁾

وفي شرح المفصل، لابن يعيش 643هـ، يستشهد بشعر بعض المحدثين، ومن ذلك استشهاده بقول ربعة الرقي:

شَتَّانَ مَا بَيْنَ الْيَزِيدِينَ فِي النَّدَى يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَالْأَعَزَّ ابْنَ حَاتِمٍ⁽¹⁾

(1) ينظر: ابن قتيبة؛ الشعر والشعراء، تحقيق، أحمد محمد شاكر، ط3، 1977م، ص 476_563.

(2) سيبويه، المرجع نفسه، 58/1 .

(3) الجاحظ، المرجع نفسه، 187/2.

ويشير إلى أن: الأصمعي طعن في فصاحة هذا الشاعر، وذهب إلى أنه غير محتج بقوله، ورأيت أبا عمرو قد أنشد هذا البيت على وجه القبول له والاستشهاد به. وقد طعن الأصمعي على غير شاعر قد احتج بهم غيره، كذي الرمة والكميت، فيكون هذا أيضاً مثلهم⁽²⁾. واستشهد بقول أبي نواس :

كَأَنَّ صُغْرَى، وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ⁽³⁾

وإنما استعمل من هذا القبيل (أخرى) كقوله تعالى: "ومنها نخرجكم تارة أخرى « وقالوا: دنيا في تأنيث الأدنى ... »⁽⁴⁾، وفي كتابه باب لأمثال المولدين⁽⁵⁾، حيث يستشهد بقول بشار على المثل: أبصر من أعور:

وَقَدْ ظَلَمُوهُ حِينَ سَمَوْهُ سَيِّداً كَمَا ظَلَمَ النَّاسُ الْغُرَابَ بِأَعُوراً⁽⁶⁾

وفي شرح شذوذ الذهب يستشهد ابن هشام المصري (761 هـ) ببيت ربعة الرقي:⁽⁷⁾

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَالْأَعْرَبِ بْنِ حَاتِمٍ

وقول لأبي عبد الرحمن بن عبد الله العتبي وهو من شواهد ابن عقيل والآشموني:

رَأَيْنَ الْغَوَانِي الشَّيْبَ لَحَ بِعَارِضِي فَأَعْرَضَنَ عَنِّي بِالْخُدُودِ الْنَوَاضِرِ⁽⁸⁾

ومنه أيضاً في الاعتراض بالدعاء قول أبي المنهال عوف بن ملحم الخزاعي :

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلُغَتْهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ⁽⁹⁾

(1) ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان، ط1، 2001م، 37/4.

(2) ينظر: ابن يعيش، المرجع نفسه، 38/4.

(3) المرجع نفسه، 102/6.

(4) الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة _ بيروت، 79/1 .

(5) المرجع نفسه، 88/1-89.

(6) المرجع نفسه، 116/1.

(7) ابن هشام، شرح شذوذ الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق، عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع _ دمشق، ط1، 1984م، ص 404.

(8) المرجع نفسه، ص179.

(9) ابن يعيش، المرجع نفسه، 38/4.

وفي دقائق التصريف للقاسم بن سعيد المؤدب (338هـ) . يحتج بأبي تمام : وقالوا إهراق يهريق قال أبو تمام:

محمد بن حميد إحلقن رمحہ هُريق ماء المعالي مُذ هُريق دمه
تنبعت لبني نيهان يوم ثوى بيد الزمان فيهم وفمه⁽¹⁾

واستشهد ببيت لأبي العتاهية، وسنه أبيات لأبي تمام،⁽²⁾ وأربعة أبيات لعبد الله بن المعتز⁽³⁾ وبيتين لابن الرومي⁽⁴⁾ ومنها مثلاً: باب التفاعل: ومن ذوات الياء فمنه التحايي وهو الاستحياء، وقال عبد الله بن المعتز :

إذا مابت للروض حمرة خدها تحايا فظل الروض يخفي شقائقه⁽⁵⁾
ثم المفاعلة مثل مداواة قال أبو العتاهية :

هلك المداوي والمداوى والذي جلب الدواء وباعه والمُشتري⁽⁶⁾

وفي المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات لأبي علي (337هـ) قوله:

وَمَنْهَلٍ لَيْسَ لَهُ حَوَازِقُ وَلِضَفَادِي جَمَّةٍ نَقَانِقُ

أي ضفادع. وكذلك يجوز فيه استعمال الاسم على حرف واحد⁽⁷⁾ ومن شواهدة أيضا قول خلف الأحمر:

أبي الحاؤون أن يطأوا حماه ولا تسري بعقوته الذئاب⁽⁸⁾

وفي الخصائص لابن جني ت 65هـ، يقول: « احتج بشيء من شعر حبيب بن أوس الطائي في كتابه في الاشتقاق لما كان غرضه فيه معناه دون لفظه فانشد فيه له:

لو رأينا التوكيد خُطَّةً عَجَزَ ما شَفَعْنَا الآذَانَ بالتَّؤْيِبِ⁽¹⁾»

(1) ينظر: المؤدب، دقائق التصريف، تحقيق، حاتم صالح الضامن، دار البشائر 1425 - 2004، ط1، ص366.

(2) المرجع نفسه، ص345,169.

(3) المرجع نفسه، ص366,56,92,110,540، 81.

(4) المرجع نفسه، ص344,201,200.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص36.

(6) المرجع نفسه، ص344.

(7) الفارسي، المسائل المشكلة (البغداديات) تحقيق، يحيى مراد، دار الكتب العلمية، 1424هـ / 2003م، ص161 والبيت لخلف الأحمر.

(8) المرجع نفسه، ص230.

فابن جني يطبق هذا النهج في كتابه كله إن أشار إلى قوة لغة المحدثين فإنما يشير إليها بطريق غير مباشر، فهو يورد شعرا للبحثري يقول فيه: والله فما أعذب وأطرف وأدمت قوله:

أَيْنَ الْغَزَالِ الْمُسْتَعِيرُ مِنَ النَّقَا كَفَلَا
وَمَنْ نَوَّرِ الْأَقَا حِي مَبْسِمًا؟ (2)

ومما جاء به للطائي الصغير (البحثري) قوله :

عِتَابٌ بِأَطْرَافِ الْقَوَافِي، كَأَنَّهُ
طِعَانٌ بِأَطْرَافِ الْقَنَّا الْمُتَكَسِّرِ (3)

وأحد من أجتاز به البحثري في قوله:

لَا هُنَاكَ الشَّغْلُ الْجَدِيدُ بِحَزْوَى
عَنْ رُسُومِ بَرَامَتَيْنِ قِفَارِ (4)

ويستشهد بأشعار أبي تمام ومعانيها ومنها، قال الطائي الكبير:

يَقُولُ مَنْ تَقَرَّعَ أَسْمَاعَهُ
كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلَ لِلْآخِرِ (5)

وقد مر به الطائي الكبير، فقال:

نِعْمَةُ اللَّهِ فِيكَ لَا أَسْأَلُ اللَّهَ
لَهُ إِلَيْهَا نُعْمَى سِوَى أَنْ تَدُومَا (6)

ومثله قوله :

لَا أَظْلُمُ النَّأْيَ قَدْ كَانَتْ خَلَانِقُهَا
مَنْ قَبْلَ وَشَكِّ النُّوَى عِنْدِي نَوَى قَذْفًا (7)

كما استشهد بشعر ابن الرومي في المعنى :

وَحَدِيثُهَا السَّحَرُ الْحَلَالُ لَوْ
أَنَّهُ لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

وَدَّ الْمَحْدَثُ أَنَّهَا لَمْ تَوْجَزِ (8)
إِنْ طَالَ لَمْ يُمَلِّ وَإِنْ هِيَ أَوْجَزَتْ

واستشهد بشعر أبي العتاهية :

أَلَا يَاعْتَبَةُ السَّاعَةُ
أَمُوتِ السَّاعَةُ السَّاعَةُ (9)

(1) ابن جني، المرجع نفسه، 25/1.

(2) المرجع نفسه، 302/1.

(3) المرجع نفسه، 26/1.

(4) المرجع نفسه، 260/ 2.

(5) المرجع نفسه، 192/1.

(6) المرجع نفسه، 345/ 1.

(7) المرجع نفسه، 169/2.

(8) المرجع نفسه، 31/1.

(9) المرجع نفسه، 236/2.

واستشهد بشعر بشار في المعنى ومنه قوله:

وحوراء المدامع من معد كأن حديثها ثمر الجنان⁽¹⁾

واستشهد لمحمد بن ذؤيب العماني بقوله :

كَأَنَّ أُذُنَيْهِ إِذَا تَشَوَّفَا قَادِمَةً أَوْ قَلَمًا مُحَرَّفَا⁽²⁾

وفي كتاب مغني اللبيب استشهد بشعر ابن الرومي، وأجاب ابن عصفور على البيت بأن المراد أن الجد أتاه السؤدد من قبل الأب، والأب من قبل الابن، والأب من قبل الابن في قوله:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلاً لعمرى ولكن منه شيبان

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان⁽³⁾

واستشهد ببيت أبي العتاهية 213هـ :

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب⁽⁴⁾

واستشهد بقول ابن المعتز (296هـ) :

مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك ياليتني إياك طوباك⁽⁵⁾

واستشهد ببيت أبي العلاء المعري (449هـ) :

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلَا الْعَمْدُ يُمَسِّكُهُ لَسَالَا واستشهد

بأبيات كثيرة للمتنبى (354هـ) :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتل والبين جار على ضغفي وما عدلا⁽⁶⁾

ومنه أيضا « وقع في شعر المتنبى زيادة الباء في فاعل كفى المتعدية لواحد، قال:

كفى ثعلا فخراً بأنك منهم و دهرراً لأن أمسيت من أهله أهل.

ولم أر من انتقد عليه ذلك»⁽⁷⁾. وقول المتنبى :

(1) المرجع نفسه، 32/1.

(2) المرجع نفسه، 432/2.

(3) ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا_

بيروت، 1992م، ص160.

(4) المرجع نفسه، ص376 .

(5) المرجع نفسه، ص376.

(6) المرجع نفسه، ص360.

(7) المرجع نفسه، ص145.

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي (1)

ولقد أورد ابن هشام للمتنبى ما يزيد عن العشرين شاهداً قيل: إنها للشرح لا للاحتجاج، وقد لاحظت أن ابن هشام أحتج بها في النحو، على بعض القواعد النحوية .

5-استشهاد العلماء بالمولدين ودلالاته

إن توسيع مدة الاحتجاج إلى عصر المولدين وعدم الالتزام بمنطق وثيقة الفارابي أو غيرها هو الأمر الذي يعبر عن اللغة ويثريها، فقد أورد النحاة واللغويون الكثير من الشواهد تجاوزت زمن الاحتجاج قيل: إنها للشرح لا للاحتجاج ويتضح ذلك فيما يلي:

أولاً: لقد استشهد بأشعار كثيرة للشعراء المحدثين في تقعيد اللغة، سواء أكان الاستدلال للمعنى، أم للنحو لغوياً وتركيبياً وصلت إلى أعلى نسبة في الاحتجاج بها في شرح الكافية والشافية للرضي، حيث كان مجموعها (1153) شاهداً في الشرحين، منها في شرح الكافية (957) شاهداً، وشرح الشافية (196) شاهداً. أما الشواهد التي وقع بها الاستدلال للمولدين فقد بلغت « أكثر من مئتي شاهد في النحو، وستة وتسعين شاهد في فنن اللغة » (2)، وعليه يمكن القول: أن الاحتجاج بأشعار الشعراء المولدين كان ذا نسبة عالية وقد أخذت حيزاً كبيراً في تقعيد النحو.

ثانياً: إن ما يقارب ستة عشر عالماً لغوياً، وستة وعشرين من أئمة النحو قد ركنوا إلى أشعار المولدين؛ لذا يمكن القبول بالدعوة القائلة: بمد فترة الاحتجاج بالشعر إلى عصر المولدين، ولم لا « نقبل ما جاء عن ثقاة الشعراء الذين يشهد لهم نتائجهم بالتمكن في اللغة وسلامة ملكتها وقوتها لديهم، كما نقبل عن حضارتهم في هذا من أكابر الأدباء وعلماء اللغة. مادام ما جاؤوا به لا يخرج عن الأصول والضوابط العامة » (3)

ثالثاً: إن السماع من الشعراء المولدين لن يضر اللغة شيء، بل إنه سيثريها بتراكيب وألفاظ جديدة ونماذج نحوية قد تفيدنا الآن ونحن على عتبة التكثر من الابتعاد عن مألوف العرب في اللغة الشعرية، وربما كانت هذه الدعوة في الاهتمام بالمحدثين ولغتهم قد كانت ديدن علماء السلف، وإلا فلماذا يختار ابن قتيبة شعر عشرين من المحدثين؟ ويضمن كتابه منهم مع أنه قال عمن اختار شعرهم: بأنهم الذين يقع الاحتجاج بأشعارهم .

(1) المرجع نفسه، ص 148 .

(2) جبل، المرجع نفسه، ص 225.

(3) المرجع نفسه، ص 236.

رابعاً: تكرر الأمر في الحماسات والمختارات الشعرية التي تعد أعلى مراتب أشعار المولدين وأنفاها، عند أكثر علماء اللغة، كابن جني في استدلاله بشعر المتنبي وأبي نواس، ومحاولاته في تأويل ما أخطأ به المتنبي، ودفاعه المستميت عن طبعه ونقاء شعره، أليس هذا إقراراً واعترافاً بحجية أشعاره .

خامساً: الشروحات التي قامت على أشعارهم، فهذا المرزوقي يشرح الحماسة، والعكبري يشرح ديوان المتنبي، والتبريزي يشرح أشعار المولدين في الحماسة من حيث ألفاظها وتراكيبها ودلالاتها واستعمالاتها، وكذا فعل غير واحد من هؤلاء .

ومن هنا انطلقت دعوة الباحثين المحدثين في قضية الاحتجاج « فمن رأيناه سليم الأسلوب صحيح العربية وثقناه وجعلنا كلامه مدداً للغة وحجة في النحو فقد وثق المتقدمون كبار شعرائهم واحتجوا بأقوالهم من بشار إلى المعري »⁽¹⁾.

فإذا وجدنا ما يساير الشعراء القدماء في لغتهم سلامةً وأسلوباً احتجنا بشعره « فالأديب السليم السليقة أحسن تصرفاً في اللغة وأدق ذوقاً لها، وأفصل بحكمها من نحوي حفظ عصرنا على اضطرابه واختلاف أحكامه، وإن عمل الأديب الممتاز بكل وقت وفي كل لغة هو الثروة الحقيقية والمدد المحي لها »⁽²⁾ .

وربما أغرقت قضية سلامة السليقة وحسن التصرف بعض الدارسين أن يطالبوا بالاحتجاج بشعر كشعر شوقي وحافظ إبراهيم بل وتجاوز ذلك إلى النثر، كنثر طه حسين والعقاد والمازني « ولكل من هؤلاء عطاؤه اللغوي القيم الذي يثري الفصحى بالكثير من الظواهر التركيبية، نتيجة إطلاعهم على الآداب الغربية وتمثلهم لتراكيبها »⁽³⁾ على أنني اعتقد أنّ مد فترة الاحتجاج إلى عصر المولدين وعدم الالتزام بمنطق وثيقة الفارابي أو غيرها من علماء النحو القدماء، هو الأمر الذي يعبر عن اللغة ويثريها؛ لأن العقاد أو شوقي لم يكونا ليخرجا عن نثر الجاحظ أو شعر المتنبي وقولي هذا لا يعتمد القدم وإنما هي حقيقة الإبداع اللغوي .

(1) الشنقيطي، المرجع نفسه ، ص146.

(2) المرجع نفسه، ص46.

(3) عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، ط6، بيروت _ لبنان 1413هـ/1993م في علم اللغة العام، ص236.

6- الاستشهاد بالشعر

يتطلع الدارس لشواهد سيويه في الكتاب، أو لشواهد من جاء بعده والتي ربما كانت في معظمها تركز على شواهد، أن يعبر عما يتوالت في ذهنه من تساؤلات حول الشعر وحجته هل الشواهد الشعرية التي اعتمد عليها كافية لتقعيد اللغة؟ وهل الزمن المحددة بتلك الفترة للاحتجاج كافية للتقعيد اللغوي؟ ألا يمثل الشعر جانباً من جوانب اللغة ونمطاً معيناً من الإبداع. أيعد الاحتجاج بالشعر سبباً من أسباب كثرة الاستثناءات على القاعدة؟ ولماذا اعتمد النحاة واللغويون على الشعر في احتجاجهم دون النثر؟ .

هذه الأسئلة وغيرها مما يلح عليه نظم الدرس الحديث للغة، تجعلني أتلصص بالإجابات من هنا وهناك، ففترة الاحتجاج هي من مائة وخمسين قبل الهجرة وتشمل شعراء المعلقات وبعض الشعراء المقلين، وكلهم لا يتجاوز عددهم العشرين، وهذا العدد غير كاف لتقعيد لغة أمة وصلت رقعتها الجغرافية من الصين إلى الأندلس.

ويضاف إلى هذا أن فترة احتجاج ما بعد الهجرة كانت فترة حروب مستمرة واضطراب بنسبة الشاعر لشعره والراوي لما يحفظه، فهل يكفي نتاج هذه الفترة وماسبقها ليقعد نحو العربية، وإذا سلمت بأن الفترة الزمنية غير كافية ليقعد على شعرها نحو أمة، فهل قصر جل الاستشهاد بالشعر أساساً في التقعيد كان وافياً لترسيخ مقتضيات عصور سابقة ولاحقة، وربما قال أحدهم: « كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون »⁽¹⁾ وربما قيل: أن عمر بن الخطاب يقول: « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »⁽²⁾، فأقول إن ابن سلام نفسه يقول: « فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته... فلما أطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألغوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك »⁽³⁾ ويقول في بداية كتابه « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد »⁽⁴⁾.

(1) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، شرحه، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني _ جدة، ص 24.

(2) المرجع نفسه، ص 24 .

(3) المرجع نفسه، ص 25.

(4) المرجع نفسه، ص 46 .

نعم إن الشعر علم العرب لأنهم تشاغلو به قبل الإسلام، أما بعده فقد تشاغلو بالقرآن وجمعه، والحديث وسيرة الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ والأنساب، وأيام العرب وأخبار الفتوحات وتوقيعات الخلفاء، وخطب المساجد، والخطب السياسية ورسائل الجند. فإذا كان العرب قد تشاغلو عن الشعر بالنثر والحروب، فلم لم يكن النثر أساساً للتقعيد؟ لا سيما أنه قد تنحى عن الضرورة؛ ضرورة الشعر وإشكالاتها، وعن النمط الشعري المقيد والرواية وأخطائها.

أما شواهد سيبويه في الكتاب فمعظمها شعرية وقد دخلها الخل كما دخل الشعر العرب في روايته وانتحاله وتزيد رواته حيث « أسقطت منه عبارات نثرية كثيرة وشواهد شعرية أكثر، وأضيفت بدلا منها عبارات جديدة وشواهد شعرية أخرى ليست لها قوة الشواهد المسقطة وأهميتها »⁽¹⁾ إن الرواة قد حاولوا التزيد في بعض الأشعار لسبب أو لآخر مما أربك النحاة، وجعلهم في القاعدة الواحدة يعتمدون على رواية يعتمد فيها غيرهم رواية أخرى لنفس البيت، ورواية ثالثة ربما تختلف في مطل حرف أو تتوين كلمة، أو الإتيان برواية أخيرة بلغة من لغات العرب . ولعل شاهد ابن قيس الرقيات :

لا بَارَكَ اللهُ في الغَوَانِي هَلْ يُصْنَحْنَ إِلَّا لَهُنَّ مُطَلَّب

خير شاهد على تعدد الروايات، والاحتمالات في لفظة الغواني بظهور الكسرة وعدمها. وربما كان الاعتماد على النثر إلى جانب الشعر يقلل الشذوذ النحوي ولأصبحت القاعدة أكثر استواء والنحو العربي أيسر.

وينعطف على هذه القضية قضية أخرى وهي عدم معرفة صاحب الشاهد، حيث تقول المصادر: « إن أبا عمر الجرمي قال : نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتا، فأما الألف فعرفت أسماء قائلها، وأما الخمسون فلم أعرف قائلها »⁽²⁾. وخمسون بيتا تشكل نسبة لا يستهان بها، فكيف يقعد على شعر شاعر مجهول القائل، وعلماء اللغة يرون أن لاجبة لمن لا يعرف قائله، ويؤكد على ذلك صاحب الاقتراح أنه « لايجوز الاحتجاج بشعر أو نثر لا يعرف قائله »⁽³⁾.

(1) حنا حداد، حول كتاب سيبويه، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، 1983م، ع22، ص79.

(2) البغدادي، المرجع نفسه، 8/1 .

(3) السيوطي، المرجع نفسه، ص55.

وأمر آخر وهو تعدد القائلين للشاهد الواحد، والناظر في هوامش كتب النحو يلحظ ذلك كثيراً في هوامش كتاب الإنصاف حيث « أنشد ابن منظور هذا البيت نقلاً عن الجوهري، ونسبه إلى سبرة بن عمرو الأسدي، ثم قال: ... في المفضليات للجميع الأسدي، واسمه منقذ بن الطماح» (1).

ولعل تعدد الروايات و تعدد الرواة، وعدم معرفة القبائل لبعض الشواهد، يجعل اعتماد التقعيد على النثر أولى؛ ذلك أن النثر أبعد عن الضرورة وأوسع في التعبير عن مناحي الحياة وسيقول قائل: « لما رأت العرب المنتور يند عليهم وينفلت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم، تدبروا الأوزان والأعاريض فاخرجوا الكلام أحسن مخرج، بأساليب الغناء، فجاءهم مستويا ورأوه باقياً على ممر الأيام، فألفوا ذلك وسموه شعراً » (2) فأقول: ذلك قبل الكتابة وقبل الإسلام وأيام الجاهلية، أما وقد اشتغل الناس بالحروب و بناء الدولة الإسلامية وتركوا الشعر المعبر عن مناحي الحياة، فهل يكون ذلك الشعر الذي ضاع أكثره ممثلاً لكل لغة العرب. سيقولون: « وأفضل بيان العرب، وأفصح ما أداه عنها الشعر الجاري على ألسنتها بالبلاغة المحكمة، والحكمة المتقنة الباقية، مضمناً حكماً وسائر أمثالها شاهداً على أحسابها، وكريم أفعالها، مخبراً عن مروءتهم في سالف أيامهم وعن محمود خلائقهم، وجميل وفائهم» (3).

فأقول: إن الشعر عنوان الفصاحة، وقمة البلاغة وأصل الحكمة، ومنيع الكلام، ولكن هذا لا يعطيه سبق لأننا نقعد اللغة، ونريد الاطراد فيها، والتوسعة عليها ليفهم شعرها ونثرها، فأين أحاديث العرب وأحاديث قبائلها في أسواقها وأيامها؟ وأين العبارات النثرية التي كان يتفاهم بها الناس في حياتهم اليومية؟ هل ماتت معهم أم أنها امتدت إلى عصر عمرو بن العلاء والأصمعي، أم أنها انتهت بانتهاء الشرك ومجيء الإسلام؟ .

خاتمة

بعد دراسة جدلية الاحتجاج الشعري في التقعيد اللغوي، أكون قد أنهيت بحمد الله _ عملي في هذا البحث، وأسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم. هذا ويمكن تلخيص النتائج بالآتي :

(1) ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ/ 2003م، 166/1.

(2) ابن عصفور، الممتع الكبير في التصريف، مكتبة لبنان، ط1، 1996، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص45.

1- إن الظروف الزمانية والمكانية هي التي هيأت لقريش السيادة لغويا وسياسيا، وعليه فقد قصر الاحتجاج على أشعار بعض الشعراء؛ لأنهم قدماء على عادة علماء اللغة في تقديم السابقين من الشعراء على معاصريهم

2- إن إعراض النحاة، وعلماء اللغة عن نتاج مئات الشعراء والناثرين ممن طبعوا على العربية الأصيلة عملا غير مبرر، اللهم إذا اعتبر نتاج المولدين غير عربي .

3- إن توسيع مدة الاحتجاج أمر لا يفهم منه الدعوة إلى الإطاحة باللغة، والتبشير بلغة محدثة تتناسب ومستحدثات العصر، بل الخوف من نذر تلك المماحكات بين اللغوين التي لم تأت بجديد إلا تفريغا للغة من محتواها، والخوف من أن تسري إليهم عدوى الخلاف الفقهي، الذي لا يضيف إلى العربية شيء تستحق ترك جزء كبير من أشعار المتنبي أو البحتري أو غيرهم بسبب زمن ابن هرمة أو موقع القبيلة أو ديانة الشاعر مثلا.

4- إن الناظر في لغة وتراكيب وثائق حجية اللغة يجد أنها استندت إلى التعميم الذي لا يستند إلى الاستقراء لواقع المعايير سواء أكانت مكانية أو زمانية أو قبلية. أضف إلى هذا الأمر طبيعة بعض الألفاظ التي استخدمت في نصوص تلك الوثائق كألفاظ مثل: الفصاحة، والعجمة، والصابي النقي، ما هي في واقع أمرها إلا ألفاظ مطلقة الدلالة.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

1- الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (502هـ) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق، إبراهيم زيدان، مكتبة الهلال، 1902م.

2- ابن الأنباري أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري (577هـ) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ/ 2003م.

3- الأيوبي ياسين، معجم شعراء لسان العرب، دار العلم _ بيروت، 1980م.

4- البغدادي عبد القادر عمر (1093 هـ) خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط4 ، 1818هـ _ 1997م .

5- التهانوي محمد بن علي الحنفي (1158هـ) ، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان الناشر _ بيروت .

6- الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر، البيان والتبيين (159 هـ)، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الجيل _ بيروت، (د. ط) (د. ت) .

- 7- جبل محمد حسن، الاحتجاج بالشعر في اللغة، درا الفكر - القاهرة .
- 8- الجرجاني علي بن عبد العزيز (392هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي (د. ط) (د. ت).
- 9- ابن جني أبو الفتح عثمان (322هـ - 392هـ) الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب العلمية المصرية، (د. ط) (د. ت) .
- 10- حداد حنا جميل سليم، حول كتاب سيبويه، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع22، 1983.
- 11- ابن سلام أبو عبد الله البصري محمد بن سلام بن عبد الله بن سالم الجمحي (232هـ) طبقات فحول الشعراء، شرحه، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني _ جدة.
- 12- سيبويه أبو بشر عمر بن عثمان (180هـ) الكتاب، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الجيل _ بيروت، ط1.
- 13- السيرافي أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزباني (368هـ)، أخبار النحويين البصريين، تحقيق، محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر، مصطفى البابي الحلبي، 1373/1966.
- 14- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ):
- الإتيان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م.
- الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: محمد حسن محمد ، واسماعيل حسن الشافعي ، دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان ، ط1، 1989م .
- 15- الصالح صبحي إبراهيم، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط1، 1379/1960.
- 16- شاهين عبد الصبور، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، ط6، بيروت _ لبنان 1413هـ/1993م.
- 17- الشنقيطي محمود، في أصول النحو، مجلة مجمع القاهرة، العدد الثامن، 1955م.
- 18- ابن عصفور أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد الحَضْرَمي الإشبيلي (669هـ)، الممتع الكبير في التصريف، مكتبة لبنان، ط1، 1996.
- 19- ابن عقيل بهاء الدين عبد الله العقيلي المصري المصري، شرح ابن عقيل، دار الفكر (د. ط)،
1991م. 20- الفارسي أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، المسائل المشكلة (البغداديات) تحقيق، يحيى مراد، دار الكتب العلمية، 1424 / 2003م.
- 21- ابن فارس أبو الحسن أحمد بن زكريا (395هـ)، الصحابي في فقه العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق، السيد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان، ط1، 1418هـ/1997م .
- 22- أبو القاسم محمد بن سعيد المؤدب، دقائق التصريف، تحقيق، حاتم صالح الضامن، دار البشائر، ط1، 2004م.

- 23- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ) أدب الكاتب، تحقيق، محمد الدالي، مؤسسة الرسالة_ بيروت، ط1، 1982م .
- الشعر والشعراء، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، ط3، 1977م .
- 24- القيرواني أبو علي الحسن بن رشيقي (463هـ) العمدة في محاسن الشعر وأدبه، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، 1401هـ/1981م.
- 25- المرزباني أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ/1995م.
- 26- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- 27- مهدي محقق، أثر اللغة الفارسية في اللغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- 28- الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة_ بيروت .
- 29- ابن هشام محمد بن أحمد اللخمي (577هـ)، الفوائد المحصورة في شرح المقصورة، تحقيق، أحمد عبد الغفور العطار (د. ط) (د. ت) .
- 30- ابن هشام أبو محمد جمال الدين بن يوسف الأنصاري (761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا_ بيروت، 1992م.
- 31- ابن هشام عبد الله بن يوسف بن أحمد، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق، عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع _ دمشق، ط1، 1984م.
- 32- ابن يعيش أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش (643هـ)، شرح المفصل للزمخشري، تحقيق، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان، ط1، 2001م .